العنصر الانساني

فى كتاب « النماذج البشرية »

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز الملیجی

أصدر الدكتور محمد مندور كتباً ثلاثة أضافها فى الأسبوع الماضى إلى المكتبة العربية هى « نماذج بشرية » و « فى الميزان الجديد » و « من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث » الأول والثانى من تأليفه ، والثالث ترجمه عن الفرنسية لمجموعة من الدراسات فى الثقافة الخلقية ، كتبها نفر من كبار أساتذة فرنسا المعاصرين

وليست « النماذج البشرية » بالكتاب الغريب عن القراء فقد طالعنا بعضه مقالات فى المجلات الأدبية ، ظل ينشرها المؤلف تباعاً منذ عاد من أوروبا ، قبل الحرب الحالية بقليل ، حتى اليوم . وقد جمعها المؤلف فى كتاب واحد بعد أن أعاد فيها النظر فأصلح منها ، ورجع عن الكثير من آرائه وأحكامه ، وفقاً لتطوره الروحى . وأضاف إليها نماذج جديدة ؛ وفضلاً عن ذلك فقد صُدِّر للكتاب بمقدمة طويلة كتبتها زوجته السيدة ملك عبد العزيز خريجة كلية الآداب . وقد احتوت تلك المقدمة على دراسة عميقة لما جاء فى الكتاب ؛ وبما لها من نفاذ الأديبة الشاعرة ، وبحكم كونها أقرب الناس إليه عرضت لشخصية المؤلف بالتحليل فكشفت لنا الستار عما يخفى علينا من خصائص نفسه الفنية الزاخرة بمختلف المشاعر الحادة والمعانى المتألقة

وبعد فما موضوع هذا الكتاب ؟ أو ما هي هذه النماذج البشرية التى عرضها علينا المؤلف ؟ نفر قليل من العباقرة الخلاقين أمثال : « جيته » و « دستويفسكى » و « موليير » و « هوميروس » الخ ... هم وحدهم الذين استطاعوا بطول

المفرغ Vacwm tube يتحول ويتقدم أخذت القوة الكهربائية للمخ نصيبها من البَزْل (اصطلاح طبى)

وكان الدكتور برجر أول من اشتغل بكهرباء المخ . وقد بزل المخ بوضع آلات تسمى (إليكترودات electrodes) مباشرة على العضو من خلال فتحات صغيرة فى الجمجمة . وحصل على آثار موجة المخ للعباقرة والبلهاء . وهذه الطريقة الآن يسهل استعمالها

هب أن مُخك أريد به أن يبزل ؛ إذن يجب أن يدعك ذراعك الأيمن دعكاً تاماً لينتقل كل زيوت الجلد . ثم يُلف حول الذراع ضمادات مشبَّعة بمحلول ملحى لتحفظ الآلات المسماة (إليكترودات) مضغوطاً عليها تجاه الجلد عند المعصم والساعد . وتوضع حول رأسك عمامة بيضاء تحتوى على الجهاز الفضى للرأس ، وتوصل الأسلاك هذا الجهاز بجهاز آخر يسجل « تموجات المخ » على قصاصات من الورق

التموجات الكهربائية للمخ

للموجات الكهربائية فى المخ وزنان rhythms معروفان فى العلم بموجتى « ألفا » و « باء » Alpha & beta ووزن Alpha يتموج نحو ١٠ مرات فى الثانية الواحدة . و beta نحو عشرين مرة فى الثانية . وتظل هذه الموجات متماثلة يوماً بعد يوم فى حالات اعتيادية . وحينما يحدث اضطراب عقلى أو عصبى تسجله الموجات الكهربائية . فمثلاً فى الصرع epilepsy يوجد تكديس عظيم من القوة الكهربائية فى المخ بمقدار ٣٠٠٠٪ فوق العادى . وفى الأغماء تبطئ موجات المخ بالنزول إلى ٣ أو ٥ مرات فى الثانية . وعلى قدر ما يكون استعمالك لمخك شاقاً تكون القوة الكهربائية التى تنشرها أكثر . والاشتغال بالمسائل الحسابية العويصة يجعل الإلحاح على مقياس المخ كبيراً

ومن الوزن rhythm الذى يظهر على السجل نحكم بأن النساء يفكرن أسرع من الرجال . والتكرار المتوسط لموجات « ألفا » عند المرأة ١١ فى الثانية مقابل ٢ر١٠ عند الرجال

والبزل الكهربائى للمخ يظهر فى موجات أناس يختلفون اختلافاً تاماً . ولقد برهنت التجارب حقيقة نظرية علم النفس بأنه ليس هناك شخصان يتشابه تفكيرهما بأى حال .

(الأسكندرية) عبد العزيز جاويد

ما تدبروا الوجود والنفس الإنسانية ؛ النفاذ إلى جوهر الحياة الإنسانية ، فكشفوا الستار عن أسرار البشر وطبائعهم الأصيلة ، وأودعوا أبطال قصصهم هذه الأسرار وحملوهم هذه الطبائع فجاءت « نماذج بشرية » بحق كما سماها المؤلف لأنها تمثل آلافاً من البشر الذين يعيشون بيننا ويضطربون فى مناكب الحياة ؛ ولأنها تساهم فى تجسيم المشاكل الإنسانية ، تلك التى نشترك فيها جميعاً أيا كان زماننا وأيا كان مكاننا ، كمشكلة السعى الأبدى لبلوغ الحق والخير والجمال ، كما تصورها مأساة « فوست » ، وكالصراع الدائم بين قوى الفرد وصخرة المجتمع العاتية التى لا ترحم ، كما تبرزها قصة « جوليان سوريل » أو قصة الحلاق الفيلسوف « فيجارو » ، وكالحب ذلك القبس القدسى الذى أودعه الله قلوب البشر والذى لن تخمد جذوته ما بقى قلب ينبض فى هذه الحياة ، ذلك الحب الأبدى الذى خلد حياة « دانتى » الشاعر الإيطالى بقصته مع « بيتريس » فى « العهد الجديد » Vita Nova

فكتاب النماذج إذن وحدة متسقة لأن كل نموذج إنما هو محاولة لبلوغ العناصر الخفية فى نفوسنا الإنسانية . ولهذا كانت حياة النماذج حياتنا لأنها تجاوب ما فينا من عنصر إنسانى ، وتعبر عما يكتنف نفوسنا من مشاعر وأهواء

وقد أدرك الدكتور مندور هذه الحقيقة الواضحة التى يرجع إليها الفضل فى خلود نماذجنا على صفحات الزمن ، فبعث هذه الشخصيات الروائية خلقاً جديداً مليئاً بالحياة ، زاخراً بمائها . وكأن المؤلف إذ يحدثك عن نماذجه ويورد أخبارها إنما يحدثك عن شخصيات رآها ، أو حيوات عاشها ؛ وذلك ، بما له من قدرة على بعث نماذجه من مرقدها وإكسابها واقعية حية ، وتهيئة الأجواء التى عاشت فيها ، واستحضار الملابسات التى اكتنفت حياتها

وقد ساعده على هذا دراسة طويلة للآداب الغربية ، دراسة تستطيع أن تقف على مدى عمقها إن أنت قرأت ما كتبه عن « أوليس » ، تلك الشخصية التى خلدت فى الأدب اليونانى ، وذلك البطل الذى تردد ذكره فى الأوديسا والإلياذة ، ملحمتى « هوميروس » ثم بعد ذلك يقرون فى « فيلوكتيت » مسرحية « سوفوكليس » الشاعر اليونانى العظيم الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . وهل كان الكاتب يستطيع أن يلم بمعالم هذه الشخصية وتطورها إلا خلال دراسة ممحصة لهذه المسرحيات الثلاث ؟ بل ولحياة اليونان بأسرها : تاريخها وفلسفتها ، وفنها وأخلاقها ؟ وإن القارئ ليلمس آثار هذا الجهد حين يقرأ ما كتبه المؤلف عن « أوليس » وكيف أودع هذا النموذج تطور اليونان الروحى من خشونة البداوة الأولى بما فيها من مظاهر الشجاعة والإقدام إلى طور الحكمة وما يسوده من مكر ودهاء ؛ ثم إلى طور الانحلال الخلقى الذى يجعله المؤلف رهيناً بظهور الفلسفة وما يتبعها من سفسطة وتمرد للفكر . ويقول المؤلف فى ذلك (ص ١١٤) :

« لا . إن أوليس لم يعد « فى الأوديسا » من الصلابة بحيث كان ، وقد أخذ التفكير يتغلب فى نفسه على خشونة البداوة . أخذ الدهاء يسيطر على الشجاعة ، أخذت الرقة تنفذ إلى صلابة قلبه . أخذ يتحضر . وهذا أمر لا عيب فيه ، ولكن طريق الحضارة طريق زلق سوف تراه فى الحديث الآتى « فيلوكتيت » ينتهى برجلنا كما انتهى بالشعب اليونانى كله إلى بوادر انحلال خلقى ، ستكون إحدى مظاهره ذلك الخبث القبيح الذى يصمد عنه أوليس « فيلوكتيت » Philoctète مسرحية سوفوكليس الروائى العظيم » . ثم يقول عن أوليس فى فيلوكتيت (ص ١١٤) :

« تركنا أوليس وقد أصبح فى الأوديسا أقدر على الدهاء مما عهدناه من قبل . وها نحن نلقاه اليوم فى « فيلوكتيت » مسرحية « سوفوكليس » الشاعر العظيم فإذا بنا فى القرن الخامس قبل الميلاد وإذا بنا فى أثينا حيث ظهر الفلاسفة ، وكثر الخطباء ، وتعدد السوفسطائيون : فأخذت بوادر الانحلال تدب فى

الأخلاق . وتلك ظاهرة لها أشباهها فى تاريخ كل الشعوب ، فالتفكير ملكة خبيثة كثيراً ما تنتهى بالإنسان إلى تبرير كل الوسائل والتماس كافة السبل لما نسعى إليه من أهداف ، فيسكت صوت الضمير ، وتختفى من النفس معانى النبل التى تتوافر عادة فى البداوة »

وهو يأبى أن يدع (أوليس) بعد هذه المسرحيات اليونانية الثلاث فتلمسه فى الآداب الحديثة أيام نهضت أوروبا من رقادها فى عصر النهضة ، تفتش عن تراث اليونان الخالد فتبعثه من جديد . وكان (أوليس) — وقد اجتمعت فيه عوامل الخلود — ممن استوقف الناظرين فظهر فى كثير من آداب عصر البعث العلمي . فتتبعه مؤلفنا عند (دانتى) الإيطالى وعند الشاعر الفرنسى (دى بللى ' Du Bellay وأخيراً ينتهى بنا عند أوليس الكاتب الإنجليزى المعاصر (جيمس جويس) James Joyce

هذا هو الجيد الذى كان على المؤلف أن يحتمله كى يخرج لنا أوليس نموذجاً بشرياً فى صفحات قلائل ، يقرؤها آلاف البشر فى يسر دون أن ينعموا النظر فيما تخفى هذه السطور من دراسة دقيقة متصلة

(أوليس) إذن عصارة مركزة لتلك الآداب اليونانية التى تشربها المؤلف ، وأحسب أنه لو لم يتشربها لما استمتعنا بقراءة (أوليس) . فنحن إذ نقرأ أوليس نحس لذة لا تزول لأن من صور حياتها عاش أعواماً فى ظل (هوميروس) يحسو أعذب الرحيق من ملحمتيه ، وماشى تطور اليونان حتى عصر (سوفوكليس) . ولأنه زار تلك المواطن التى أوردها هوميروس فى ملحمتيه : شاهد بحار اليونان التى خرج فيها (أوليس) على رأس جنده ، وتطلع إلى قمة (الأولمب) مقر الآلهة ، وشاهد تلك المخلفات الرهيبة الساحرة ، التى لا تزال تفوح منها حتى اليوم رائحة هذه المعارك الدامية بين أثينا واسبرطة ، وتنبعث منها صور الماضى السحيق وأطياف أبطال اليونان وشعرائهم وفلاسفتهم

وهكذا فالمؤلف إذ يحدثنا عن (جفروش) أو (العبيط) أو (ابراهيم الكاتب) لا يحدثنا عن شخصيات قرأ عنها فى بطون الكتب بل جاء حديثه نتاج تمثله لهذه النماذج وتشربه روح خالقيها . فحديثه إنما هو بعض نفسه ، ومن أجل هذا استطاع أن ينقل إلى قرائه فى يسر ، ما أحس من مشاعر ، وأن يضمن فى نفوسهم ما أحدثته هذه النماذج فى نفسه من أثر عميق لا يمحى

كل ذلك فى أسلوب لا أجد فى التعبير عن موسيقاه أحلى من قول السيدة ملك فى مقدمة الكتاب : « إنها ليست موسيقى رقص محدودة متقابلة ، ولكنها فيض نفس ، نفس حارة غنية ، موسيقى سيالة تعلو وتهبط ، وتتكسر وتتراخى وتتدافع حسب نبضات الإحساس أو وثبات الفكر . »

وبعد : فهذا أيها القارئ كتاب النماذج من حيث هو كتاب أدب . ولكن هل هو كتاب أدب فحسب ؟ أو أراد به مؤلفه أن يكون صياغة جديدة لبعض القصص العالمي ، وعرضاً تحليلياً لأبطال هذا القصص ؟ اللهم إن كان هذا لجاء الكتاب دراسة فحسب ولما كان فيه خلق أو طرافة . ولكن ما يعطى الكتاب قيمته إلى سيخلد بها هو انطواؤه على تيارات خفية ؛ من اليسير على القارئ اللبيب أن يدركها ، تيارات نفسية هى متنفس من السخط على ما فى المجتمع من شرور ، وتطلع قلق لتحطيم ما فيه من أصنام ، وتدمير ما يحوى من نظم عقيمة بالية . هذه التيارات اعتملت فى نفس المؤلف وأقلقت روحه مذ كان شاباً غض الشباب ، فلم يجد سبيلاً للافصاح عن هذه الثورة الكامنة والتعبير عن أفكاره ، ومثله السياسية والاجتماعية ، إلا أن تكون هذه النماذج البشرية ، هذه المخلوقات الإنسانية التى تبناها لتصور بعض جوانب نفسه وتنقل رسالته الاجتماعية إلى الجيل الجديد .

عبد المنعم عبد العزيز الميهى
ليسانسيه فى الفلسفة